مآسي القرن الماضي تلهم الروائيين وتجتذب الناشرين والجوائز والقراء

هيمنة الرواية التاريخية ليست فقط ظاهرة عربية

الأدب يعيد قراءة ما حدث

عبر عناصر متنوعة وأساليب مختلفة وحكايات لا تنتهي، تمكنت الرواية بآلياتها وتقنياتها من تحقيق تراكم إنتاجي هام عابر للأزمنة والأمكنة، ومن خلال هذا التراكم يمكننا أن نرصد الاتجاه العام للروايات في كل فترة وأخرى، فنجد في كل فترة ميلا عاما لنوع من الروايات فتتصدر المشهد الروايات البوليسية أحيانا أو الفانتازية أو روايات الرعب، بينما في السنوات الأخيرة تشهد الروايات التاريخية أوج انتشارها وهيمنتها على ما يكتب من روايات ناجحة.

باريس – للرواية طريقتها في تخليد التاريخ حتى ذلك الذي حدث في مناطق بعيدة عن جغرافيتنا. فعن طريق "مصائر" لربعي المدهون كانت فلسطين حاضرة بتاريخها الطويل مع الإسرائيلي، ومع "الحفيدة الأميركية" لإنعام كجه جي ومن خلال الشابة زينة كانت معاناة بغداد إبان الغزو الأميركي، وفي "الطريق الطويل" لإشمائيل بيه قرأنا عن الحرب في سيراليون، وقرأنا روايات إبراهيم الكوني عن أغوار الصحراء الليبية.

ويرى البعض أن الرواية أصبحت وثيقة تاريخية واجتماعية لحياة الشعوب، نظرا إلى ما تقدمه من رؤية أكثر حياة وبساطة للتاريخ، رؤية تتجاوز رتابة التأريخ العادي، وتغوص في ما يسكت عنه المؤرخون، إنها تجعل للتاريخ مشاعر، وهذا ما يحتاجه القراء ليتماهوا مع ذلك التاريخ.

ظاهرة عربية

أسئلة التوثيق من الضرورات عند التفكير في الرواية العربية اليوم، بل وعند التأمل في تاريخها أيضا، إذ يمكن للرواية أن تكون وثيقة تاريخية واجتماعية وتتجاوز الواقع العربي المتقلب والذي لا يمكن قراءته وهو يتحرك، لذا لجأ الروائيون إلى قراءته في ما استقر منه من خلال استعادة الماضي لفهم الحاضر.

في الرواية التاريخية جمعٌ بين جنس أدبي هو الرواية وعلم من العلوم الإنسانية هو التاريخ، يقوم الأول على الخيال، ويقوم الثاني على حقائق ووقائع موثّقة.

عندما نقرأ رواية ما، لا ننتظر أن يقدّم لنا مؤلفها أدلة عمّا روى، حسبه أن يكون عمله مقنعا، ولكننا لا نقف الموقف نفسه من المؤرخ لأنه يسرد أحداثا وقعت فعلا، ويتحدّث عن أعلام وُجدوا حقّا، فعمله يقتضي إعادة سرد تلك الأحداث وإحياء أبطالها، وإقناعنا، من خلال جهاز وثائقي ألمّ بعناصره ومفرداته، بصدقية سرديته.

من دون علاقة محسوسة بالحاضر، يغدو تصور التاريخ مستحيلا، بيد أن تلك العلاقة التاريخية لا تعني الإيهام بالأحداث المعاصرة، وإنما إحياء الماضي بوصفه ما قبل التاريخ الراهن، ومنح حياة شاعرية لقوى تاريخية واجتماعية وإنسانية أوجدت، عبر مسار تطور طويل، الحياة التي نحياها اليوم.

وربما هذا ما يفسر نجاح الروايات التاريخية العربية في استقطاب القراء، وفي تحقيق أهم الجوائز العربية، وفي تحقيق مقروئية عالية متصدرة المشهد الروائي، وإن كان بعضهم يرى أن الإقبال على الرواية التاريخية كتابة ونشرا وقراءة هو ظاهرة عربية بحتة، فإن تقريرا صدر أخيرا عن انتشار هذا النمط الأدبي في فرنسا يبين أن هذا النوع الروائي مازال سيشهد انتشارا واسعا، وكأننا بالعالم يحاول إعادة قراءة ماضيه.

مآسي القرن الماضي

يطغى التاريخ وجروحه على روايات الموسم الأدبي الجديد في فرنسا الذي يشهد صدور نحو 500 كتاب مرشحة لجوائز الخريف.

ويسود تفاؤل كبير أوساط قطاع النشر في ما يتعلق بالمرحلة المقبلة، إذ فوجئت بالأرقام الجيدة جدا للمبيعات منذ ديسمبر الماضي بعدما كانت تخشى الأسوأ خلال فترات الحجر الصحي وإقفال المكتبات سنة 2020.

مواضيع معاداة السامية ومحرقة اليهود وعذابات أفريقيا والعبودية والحروب وغيرها محور أهم الروايات الفرنسية الجديدة

ولاحظ أحد أصحاب المكتبات على "تويتر" أن يوليو على سبيل المثال كان "جيدا جدا لقطاع المكتبات في فرنسا، ولم يشهد تراجعا في الإقبال مقارنة بالشهر نفسه من العام 2020". أما النصف الثاني من أغسطس فسيشهد كالعادة صدور أحدث مؤلفات أهم الكتّاب الذين ينتظر القرّاء جديدهم بفارغ الصبر.

فأميلي نوتومب تُصدر "بروميه سان" عن دار "ألبان ميشال"، وهي إحدى أفضل رواياتها وتتناول فيها ذكريات متخيّلة روائيا لوالدها، الدبلوماسي البلجيكي الذي توفي العام الماضي، يكتشف من خلالها القارئ عائلة غريبة الأطوار ويستذكر حلقة مأساوية من تاريخ ما كان يُعرف سابقا بزائير (جمهورية الكونغو الديمقراطية حاليا).

وتوقعت نوتومب ألا تحصل على جائزة "غونكور"، وقالت الثلاثاء لصحيفة "لو باريزيان" الفرنسية "يعتبرون أنني كاتبة حققت نجاحات ولست بحاجة إلى الجائزة، وقد تكون هذه الحجة مقنعة".

كذلك يستحضر سورج شالاندون من خلال "أنفان دو سالو" (دار غراسيه) ومارك دوغان عبر "لا فولونتيه" (غاليمار) وفرنسوا نودلمان في "ليزانفان دو كاديلاك" قصص أسلافهم في خضم مآسي القرن الماضي وحروبه.

وتطارد محرقة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية (الهولوكوست) مؤلفين آخرين. فآنّ بيريست تتعمق في جذورها اليهودية بعد تلقيها "البطاقة البريدية" (لا كارت بوستال – دار غراسيه)، فيما تروي جيزيل بيركمان قصة إحدى الناجيات في "مدام" (أرليا). ويتناول كرستوف دونير في "لا فرانس غوي" (غراسيه) موضوع معاداة السامية قبل الحرب العالمية الأولى، في حين يستعيد جان كريستوف غرانجيه اغتيالات داخل المجتمع الراقي في برلين في نهاية ثلاثينات القرن الماضي في "ليه بروميز" (ألبان ميشال).

أما عذابات أفريقيا ومسألة العبودية فتشكّل محور "مامبا بوينت بلوز" (برس دو لا سيتيه) لكريستوف نيجون الذي يأخذ القارئ إلى نيويورك وفرنسا وليبيريا، وكذلك يركّز عليها كتاب "لا بورت دو فواياج سان روتور" (دار سوي) لدافيد ديوب الذي حصل أخيرا على جائزة "بوكر" الدولية، وهو صيغة متخيّلة روائيا لمغامرات عالم طبيعة فرنسي في السنغال خلال القرن الثامن عشر. وتحضر ألحان البلوز أيضا في "دلتا بلوز" (غراسيه) لجوليان ديلمير الذي يحكي ولادة هذه الموسيقى في دلتا المسيسيبي.

الإقبال على الرواية التاريخية كتابة ونشرا وقراءة وتتويجا بالجوائز في العالم العربي بات ظاهرة تستحق الدرس

وفي زمن أقرب، تجري أحداث "أو برينتان دي مونستر" (دار ميالية – بارو) لفيليب جينادا عن قضية لوسيان ليجيه الذي ارتكب جريمة هزت فرنسا في ستينات القرن الماضي. أما ميكايل برازان فيروي قصة عضو سابق في الجيش الأحمر الياباني في "سوفونير دو ريفاج دو مور" (دار ريفاج)، فيما تستكشف جولي روكو في "فوري" (أكت سود) المناطق الكردية في سوريا والنزاع الذي تعانيه منذ عشر سنوات.

ثمة قصص أخرى شخصية جدا، كتلك التي ترويها كريستين أنغو عن تعرضها لسفاح القربى في "لو فواياج دان ليست" (فلاماريون)، وذكريات إيمانويل لامبير عن اللحظات الجميلة مع والده الذي توفي بالسرطان (لو غارسون دو مون بير عن دار ستوك).

موسو والمبيعات

أبدى النقاد اهتماما أيضا بـ"لا ديفينيسون دو بونور" (غاليمار) لكاترين كوسيه عن قصة امرأتين مختلفتين، وكذلك بـ"أون سيرتان ريزون دو فيفر" (دار روبير لافون) للممثل فيليب تورتون عن الصدمات التي عاشها جندي فرنسي سابق خلال الحرب العالمية الأولى، و"لا في كونابيل" (دار مينوي) لتانغي فييل و"بلازما" (ريفاج) لسيلين مينار.

إلا أن من المتوقع أن يحقق غيّوم موسو مجددا مبيعات قياسية من خلال كتابه الجديد "لانكونو دو لا سين" (دار كالمان ليفي) الذي يصدر في الحادي والعشرين من سبتمبر، بعد كل الكتب الآنفة الذكر.

أما بين الكتب الأجنبية، فتشكّل كتب "شاغي باين" (غلوب) للبريطاني دوغلاس ستيوارت عن الطبقة العمالية في حقبة التاتشرية، و"مدام حياة" (أكت سود) للتركي أحمد ألتان الذي كُتب في السجن ولم ينشر في بلده، و"غاد لافز هايتي" (كارايب إديشنز) لديميتي إلياس ليجيه، شهادات على قوة الأدب في مواجهة السياسة.

سوريا تحاول إحياء مسرح خيال الظل كتراث ثقافي حي

دمشق – انطلاقا من صون الهوية الثقافية ودعما لأشكالها المميزة للحفاظ على التراث اللا مادي السوري، أعلنت الأمانة السورية للتنمية إطلاق برنامج تدريبي متكامل في محافظة السويداء بعنوان "فن مسرح خيال الظل كعنصر من التراث اللا مادي السوري".

ويهدف البرنامج التدريبي كما أوضحت المشرفة على مشروع إحياء وتطوير مسرح خيال الظل في برنامج التراث الحي بالأمانة السورية للتنمية شيرين نداف إلى جذب "مخايلين" جدد بهدف التدريب على فن مسرح خيال الظل وتخريج الفريق الثاني من المتدربين بعد تخريج فريق "ظلال" في دمشق، ما يسهم في الحفاظ على هذا الإرث العريق وضمان استمراريته ونقله للأجيال.

ويستهدف البرنامج، وفقا لنداف، 20 شخصا من الشباب والشابات بتدريب نوعي يركز على نقل المعارف بشكل دقيق ومحدد يجعل كل شخص ممارسا بشكل احترافي، مشيرة إلى أن شروط التقدم للبرنامج تشمل امتلاك المتقدم القدرات الصوتية والتحكم بطبقات الصوت إضافة إلى حس الفكاهة والحركة ووجود خلفية معرفية بالرسم والتصميم وأن يتراوح العمر بين 20 و40 عاما.

وينقسم البرنامج التدريبي الذي سيقام في المتحف الوطني بمدينة السويداء لمدة 150 ساعة تدريبية خلال شهر إلى تدريب نظري وتعريفي عن مسرح خيال الظل وتدريب على طريقة تصنيع الشخصيات من حيث القص والتثقيب والكبس والتلوين والزخرفة وغيرها، وعرض تلك الشخصيات خلف المسرح وكيفية تحضير السيناريو والتحكم بالأصوات مع تقديم عروض وتجارب شخصية، وذلك بإشراف أساتذة مختصين هم فادي عطية في مجال الصوت وسهيل الجباعي في مجال التمثيل وموفق مسعود في مجال القصة وعمار حسن في مجال التصنيع والأداء وفرحان ريدان في مجال البحث النظري.

ولفتت نداف إلى أنه يمكن التقدم للبرنامج عبر تعبئة استمارات الاشتراك إلكترونيا حيث توجد على موقع الأمانة مع إمكانية الاستفسار للمزيد من المعلومات على رقم جوال ويتم استقبال طلبات التقدم حتى تاريخ الخامس والعشرين من شهر أغسطس الجاري على أن يبدأ البرنامج التدريبي في بداية شهر سبتمبر المقبل بعد أن يجتاز المتقدمون للتدريب مرحلتين اختباريتين بإشراف لجنة مختصة.

ويذكر أن خيال الظل السوري أو ما يعرف بـ"كراكوز وعيواظ" أدرج من قبل اللجنة الحكومية الدولية لصون التراث الثقافي غير المادي التابع لمنظمة "اليونيسكو" الأممية عام 2018 على قائمة التراث الذي يحتاج إلى الصون العاجل حصيلة جهد مجتمعي "أهلي وحكومي" دؤوب للحفاظ على هوية مكون ثقافي تراثي سوري وضمان استمراريته.

ويعتبر مسرح خيال الظل وشخصيات كراكوز وعيواظ نوعا من العروض المسرحية بأسلوب بسيط وتلقائي ويهدف من ذلك المتعة للمتفرجين ومن خلال الحديث على لسان شخوصه يتم تمرير بعض الانتقادات الهادفة لرجال الحكم آنذاك وبعض المظاهر السلبية، وكل ذلك كان يتم بأسلوب ارتجالي وفي اللحظة نفسها يتشكل الحدث.

و"كراكوز وعيواظ" هما شخصيتان افتراضيتان وعلى أساس حواراتهما كان يتم طرح المشكلات السياسية والاجتماعية وتسليط الضوء عليها بشكل ساخر.

وكان "الكراكوزاتيون" و هو الاسم الشعبي لمخايلي الظل يعرضون أعمالهم كل يوم في مقاهي حمص التراثية مثل مقهى "الفرح" وغيره من المقاهي الحاضرة في الوجدان الحمصي.

البرنامج يسعى لتدريب مبدعين جدد على فن مسرح خيال الظل للحفاظ على هذا الإرث العريق وضمان استمراريته

ومسرح خيال الظل عبارة عن رف خشبي تعلوه ستارة من القماش وتتوسطه قطعة من "قماش الشيفون الأبيض"، يوضع خلفهما سراج يُنار بالزيت، ويقف "الكراكوزاتي" خلف الستارة يحمل بيده عصا رفيعة يحرّك بها دمى "كراكوز وعيواظ" ثم يتكلّم الرجل بصوتين مختلفين ويبدّل صوته حسب الحوار بين الشخصيتين.

وكان الناس سابقا يجتمعون مساء كل يوم حيث تزدحم المقاهي بروادها ويجلس الشبّان في الصف الأول، وفي الصف الثاني يجلس كبار السن وهم يشربون نرجيلة "التنباك" متلهّفين للأخبار الساخرة التي سيتطرّق لها "كراكوز وعيواظ".

لكن مسرح الظل اندثر نتيجة اختلاف ظروف الحياة التي برزت بشكل واضح خاصة مع ظهور التلفزيون، رغم أنه يبقى إحدى المحاولات الأولى للتمرّد على عادات المجتمع السوداوية وإحدى أهم التجارب في تسليط بقعة ضوء على استياء الناس والتعبير عن غضبهم ووجهة نظرهم تجاه القضايا المطروحة.

ويهدف البرنامج التدريبي الجديد إلى كشف "أسرار" فن "خيال الظل"، الفن الذي بقي عقودا طويلة ينتقل بالوراثة إذ كانت تُكتب قواعده باستخدام الرموز كي تبقى مهنة محصورة بعائلات معينة.

وسيساهم البرنامج الذي ينعقد بشكل سنوي في التشجيع على ممارسة هذا الفن الذي يكاد يختفي بمخايلين جدد ولمَ لا التجديد في مواضيعه وأساليبه من خلال الشباب الجدد.

وبدأت الأمانة السورية للتنمية منذ إدراج خيال الظل في قائمة الصون العاجل لدى اليونيسكو وعبر برنامج التراث الحي بصون هذا الفن كتراث ثقافي لا مادي عبر تدريب أشخاص ليصبحوا مخايلين محترفين ضمن إطار نقل هذا المكون عبر الأجيال القادمة من خلال برنامج تدريبي متكامل جرى في التكية السليمانية بدمشق وتوج بتأسيس أول فريق لخيال الظل السوري من مختلف المحافظات السورية تم إطلاقه في احتفالية (مخايلون سوريون) شهر مارس الماضي.

محاولة لإحياء فن عريق